وكان معلمنا شيخا مهيبا يروي لنا تلك الحكايات بالتجلة والاحترام ، ولا يفتر عن عبارات الحمد والتسبيح كلما جاء على ذكر المدينة ، واحداثها ، ومقابرها ، واكابر الصحابة الذين دفنوا بها ، والملوك والامراء الذين بنوا فيها المدارس والرباطات والمستشفيات والاوقاف الخيرية .

وازددت حبا بالقدس الشريف ، فلم تعد عندي عاصمة لفلسطين فحسب ، ولكنها اصبحت دينا وحضارة ، وتجسيدا حيا لتاريخ العروبة والاسلام . ولكن حبي اصبح هياما وغراما في أيام الاسراء والمعراج ، وفي المسجد الجامع المعروف بجامع الجزار ، أحد ولاتها الطغاة .

وكان مفتي عكا وقاضيها ، الشيخ عبدالله الجزار ، ولا صلة له بالحاكم الجزار ، عالما جليلا مهابا ، ربى جيلا من العلماء في عكا ، واشتهر بالتقوى والورع ، وكان الناس يتهافتون على يده يقبلونها منى وثلاث ، وهو يسير من المسجد الى داره ، والناس من حوله في موكب فخيم .

وقبل صلاة الجمعة ، كان الشيخ الجزار يجلس على مصطبة دكان كبير ، يملكه احد وجهاء النصارى اسمه « الخواجه » عيسى العيسى ، فيقبل عليه الفلاحون القادمون من قراهم للصلاة والتجارة ، ويتزاحمون عليه يلثمون يده ، وينقضي الوقت وصاحب الدكان لا يبيع من بضاعته شيئا ، وهو يتهلل بشرا ان بركة المفتي قد حلت على دكانه في ذلك اليوم السعيد . بركة فقط ، من غير ربح ولا تجارة !!

وفي يوم الاسراء والمعراج كان الشيخ الجزار يتولى تلاوة « القصة » بصوته العذب الخشوع . ولم يكن يسمح لغيره من العلماء ان يتلوها نيابة عنه ، فقد اصبح ذلك الواجب جزءا من حياته ، يمنحه سرورا دافقا وسعادة عظمى ، ويبدو كأنه في مطلع الشباب .

وكنا في ذلك اليوم نسارع الى المسجد ونزاحم في الصفوف ، حتى نجد مكانا قريبا من الشيخ الجزار لننعم بصوته الشجي ووجهه البهي . وكان يحمل على كتفيه وجها ناصعا مشربا بالحمرة ، يجلله شيب نقي ، وفوق ذلك كله عمامة بيضاء كأنها هالة من نور . وهكذا كان يبدو لنا . وما ضر أن يكون الخيال احسن من الحقيقة ، ما دام يبعث في نفوسنا الرضا والسرور .

وتشرئب الاعناق ، ويسود المسجد هدوء وخشوع ، ويبدأ الشيخ الجزار تلاوة قصة المعراج ، من كتاب امامه . انه يقينا يحفظها عن ظهر قلب ، ولكنه يصر ان يتلوها من الكتاب بين يديه . فان الكتاب طاهر ، والصفحات مقدسة . ويجب أن يتلو من الكتاب ، ويقلب الصفحات بين يديه ، فذلك اكثر بركة . وتلك حلاوة الايمان لاولئك الذين نشأوا على الايمان .

ويمضي الشيخ الجزار في التلاوة ، بعبارات عذبة ، من سجع الى سجع ، فهذا البراق الشريف الذي يمتطيه الرسول (ص) فينقله من مكة الى بيت المقدس ، حيث يربطه ، ومن ثم يعرج الى السموات العلى ، الى سدرة المنتهى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ، الى الحضرة الالهية . . الى اخر القصة التي تعود بالرسول (ص) من السماء الى الارض في بيت المقدس ثم الى مكة ، واهلها نيام ، ويحكيها لهم ، ويقولون له اضغاث احلام .

والقصة ، بالصيغة التي كان يتلوها الشيخ الجزار في ذلك العهد ، مليئة بالصور الرائعة عن الطيور العسجدية ذات المناقير الزبرجدية السابحة في الافلاك العلية . . او الحوار الرائع الذي دار بين الرسول (ص) والانبياء الذين التقى بهم في كل سماء . .